التمادي في نسيان الماضي ...

أبحرت خميسة عدة شهور فى دراستها المنزلية للتقدم لشهادة الثانوية العامة هـذا العـام ولم تكن قد التفتت أو شغلت نفسها بما هو أزيد من براءة وإنسـانية الرسـائل الجمـة التـى يبعثها السيد إلى أهله ولكنها هامت بخطاباته التى قال عنها إنها أعادتـه إلى حـدائق جـده الجناينى عبد المحسن النحال فراح يقطف لها من زهورها العطرة كل يوم باقة منتقاة .

لكن الريس عفيفى السيد حمزة لم يعد هادئ البال عندما اقترب منه على بن جـوهر البقـال بـلا مقدمات وهو يبدى استغرابه أن يكون حق الجيرة عند خميسة معكوسًا.. فكيف تمد حبال الود مـع أولاد النحال وهى تعلم أن والده نال على أيديهم حكمًا بالسجن مدته ثلاث سنوات؟ وعرف منـه عفيفى أن ابنته استقبلت السيد النحال عدة مرات وتستقبل أخاه بدير بكثرة ملحوظة..

قال له: «**يا بنى.. إنه دكان، إن لم يدخله الناس صار خرابة، ويلزم قفله والعياذ بالله..**»

وما كان من الفتى إلا أن فاجأه بهذا التعليق:

ـ «**لو كان بدير يأتى للشراء فسوف أخجل من نفسى لو علقت على ذلك ، إنما مـا أراه أن الدكان صار مكتبًا للطرود التى لا يأتى بدير إلا لاستلامها..**»

لم يفهم الريس عفيفى عمق ما يعنيه هذا الفتى ولم يأبه بما قاله إلى أن لفت نظره سـؤال واحد راحت صفية زوجته تكرره أمامه كلما تجاهل الإجابة عليه:

ـ «**على بن جوهر؟.. فى أى شىء كان يتحدث معك؟**»

وبحدسه الريفى الصائب أحس الريس عفيفى أن حديث هذا الفتى لـه هـو الحـديث التالى لحديثه مع صفية فى نفس الموضوع.

ومع هذا فلم يجد الريس عفيفى بدًّا من أن يُحيط ابنته علمًا بما يدور بين غريمتها صفية وابن جوهر غريم أبناء النحال.. وأنهى كلامه معها قائلًا: «**وبما أنك يا ابنتى ليس لك لا فى الثور ولا فى الطحين فالتزمى الحذر، والباب الذى يأتى منه الريح فلنسده.. ونستريح**»

* * *

وهى ساهرة على دروسها استرجعت خميسة ما قاله لها والدها.. ثم تذكرت تحذيرات رأفت إبراهيم الطيب وفريد هنيدى صاحب الجسد الرشيق والقلب الرقيق.. وكان محتوى تحذيرهما هو ألا تأمن أبناء النحال.

حينئذ.. أغلقت خميسة كتابها وأطفأت مصباحها وتمددت على السرير.. ثم غرقت فى سيل الحب الجارف المنهمر فى خطابات السيد لها، وارتجف بدنها وهى تتأمل هذا الغموض الذى صار يحيطها فبعضه أطل من داخلها، وأغلبه أطل من عيون الآخرين وتحذيراتهم..

* * *

وفى ثيابه الجديدة المتجددة راق لأمير أن يسعى لأخيه فى مطابع الصباح وكل همه أن يراه السيد فى حال من استغنى عن سؤاله، بل إنه قد استغنى عنه وإلى الأبد..

اتجه السيد بأمير إلى مكانه المفضل فى محل جروبى، ورأى أمير مدى الاحتفاء بأخيه من كلّ الجرسونات حتى أن أحدهم اقترب منه مبتسمًا وهو يشير إلى أمير قائلًا:

ـ «**هذا هو الآخر أخ لك.. فهو قريب الشبه منكما أنت والأستاذ بدير..**»

ووافقه السيد بابتسامة قبل أن يسأله أمير فور انصراف الجرسون:

ـ «**هل بدير يأتى ليجلس معك فى هذا المكان؟**»

ـ «**يحضر إلى هنا كل شهر..**»

ـ «**تقول كل شهر؟**»

ـ «**طبعًا يا أستاذ.. يأتى لأخذ المصاريف لوالديك وإخوتك..**»

ووجدها السيد فرصة لمحاصرة أمير، فهو لم يقتنع بما قاله قبل قليل أنه عثر على وظيفة جعلته يستغنى عن مساعدته.. لكنه لم يشأ أن يذكر له شيئًا عن وظيفته إلى أن قال له السيد:

ـ «لن أضيع وقتى معك فى هـذا الأمر غير المهم؛ لأنى عندى أخبار أكثر أهـمية..»

ـ «أخبار أكثر أهمية؟ أى أخبار؟»

ـ «طاهر زين الدين..»

نطق السيد باسم طاهـر بهدوء شديد، وتلقاه أمير بعكس ذلك حتى كاد أن يقفز فى الهواء.

ـ «طاهـر؟.. هـل قابلته؟.. هـل هـو هـنا فى القاهـرة، أين هـو؟..»

ظل السيد على هـدوئه وهـو يصوب نظراته الفاحصـة مـن آن لآخـر نحـو أمـير، ثـم تحدث بنفس هـدوئه فحكى لأخيه عن اشتعال رغبته منذ فترة أن يجرب الحلاقة فى ميدان روكسى عند مصـطفى عبـاس الـذى يقـوم بعمـل إعلانـات عـن صـالونه فى الصـحف والمجلات، ويضع صور بعض نجوم الفن وكرة القدم داخل إعلاناته..

وقال إنه لم يصدق عينيه وهـو يخطو خطواته الأولى داخل الصالون عنـدما فـوجئ أن الواقف أمامه الآن هـو طاهـر زين الدين بشـحمه ولحمـه، ويبـدو أن طاهـرًا لم يصـدق ذلك عندما تعرف عليه للوهـلة الأولى.. فتعالت نداءاتهما لبعضهما الـبعض كـأنما مسـافة الفراق والبعد ما زالت قائمة..

ورأى السيد مدى الحلاوة والطلاوة التى صار عليها طاهـر، فقد امتلأ جسـمه النحيـف امتلاء مقبولًا، وصار وجهه أكثر نضارة وحيوية، أما شـعره النمـوذجى فقـد صـار مذهـلًا بتسريحته المتموجة ذات الشرفـة الممتـدة، وأمـا الجاكـت الكمـونى الشـمواه وبنطالـه البـيج وقميصه الحريرى المقلم بخطوط من اللونين الأبيض والبنى الغامق فقد ذكـره هـذا الـذوق الرفيع بما كانوا يعرفونه عن طاهـر من حرص تعلمه فى صغره أن تكون ملابسه نظيفة وأنيقة.

اختار السيد أن يقوم طاهـر بالقص لـه كواحـد مـن خمسـة كـراس وخمسـة صـنايعية ينتشرون فى الصالون، وأثناء استغراقه فى العمل لم يتوقف طاهر عن الحديث الهـامس مـع ابن بلده وأول من يقابله الآن من أهـل البلد بعد رحيله المفاجئ والشهير..

لم يخصه بأى حديث حول هـجرته لبلده فى وقت عصيب، لكنه اختار أن يلتقيا مسـاء وبعد انتهاء العمل بالصالون، فى حديقة الميرلاند التى تقع على مسافة قريبة من الميدان.

لم يتوسع السيد فى سرد كل ما دار بينه وبين طاهـر زين الدين أو يذكر بعض مـا عرفـه

من أسراره، لكنه أسهب فى وصف خطيبته فوزية التى تعمل فى محل كوافير للسيدات على مقربه منه فى ميدان روكسى..

وقال إن طاهر دعاه إلى زيارته فى منزل أصهاره المنتظرين بحى عين شمس، ثم قال إن طاهر إذا كان قد ضحى بأهله الحقيقيين وهرب منهم اتقاء لقهر أبيه، فإن الله عوضه بأناس أسياد ينتمون إلى أهل الصعيد الأصلاء..

وقال إن البنت رائعة الجمال، وأنها وطاهر على خير حال، وأن فوزية هذه لها قبيلة من الأعمام والعمات والأخوال والخالات يحتلون شارعًا طويلًا تقع بيوتهم على جانبيه..

وخرج أمير من هذه المقابلة مذهولًا ومعه عنوان طاهر زين الدين وقد عقد النية أن يزوره غدًا..

* * *

وحول بحيرة حديقة الميريلاند التى يسبح فيها البط وتنساب فوقها القوارب الصغيرة بالأطفال المرحى جلس أمير قبالة مضيفه طاهر زين الدين يتأمله بدهشة وشوق وهى الدهشة التى اصطحباها معهما من صالون الحلاقة حيث التقيا منذ ساعات.

ذكره أمير ضاحكًا بجلستهما المفضلة على المصلى المفروش بقش الأرز على حافة ترعة وجه البلد تحت شجرة ذقن الباشا . فقال طاهر وصوته مشحون بالأسى:

ـ «أدفع عمرى لمن يمنحنى سعادة يوم واحد من هذه الأيام»

فقال أمير محتجًا: «أى سعادة يا رجل؟.. فالمكان بأيامه وصحبته لا يجلبون لى إذا تذكرتهم إلا الشعور بالاستخفاف والشفقة والقرف»

ـ «أنت حرّ فى مشاعرك.. وبمناسبة الصحبة.. السيد قال لى إن «فريد ورأفت» فى الإسكندرية.. وفتيان يجمع بين تنمية أمواله فى البلد ودراسة الآداب منتسبًا.. وخميسة عفيفى ستحصل على الثانوية العامة منازل هذا العام..»

ـ «وأنا مثلك لا أعلم عنهم سوى هذه الأخبار»

ـ «أنت مثلى؟.. كيف هذا وأنا البعيد عنهم رغمًا عنى.. ولكنك تحيا بينهم ليل نهار..»

ـ «أفضل ما قمت به يا طاهر أنك ابتعدت عن البلد بكل ما بها»

ـ «وهل تظن أننى فى غاية السعادة لأنى فعلت ذلك؟»

ـ «ما أراه أمامى الآن هو أنك باشا ابن باشا.. لا تقل بريقًا عن زبائن صالونك»

ـ «إنه بريق كما قلت أنت.. أما السعادة، فلم أقابلها منذ هروبى.»

ـ «هل أنت نادم على ما فعلت؟»

ـ «بدأ الندم عندى بعدما علمت بما استقر عليه فتيان من الجمع بين العمل والدراسة.. وهو نفس ما نجحت به خميسة. ولولا قسوة أبى الفظ والإهانات اليومية التى كان يغمرنى بها حتى كتم أنفاسى لفعلت مثلهما..»

ـ «ولكنك أفضل منهما وبكل أموالهما..»

ـ «الآن فهمت ما مقاييسك.. فالمال هو أفضل ما تتمناه»

ـ «ألم تهرب من أجل المال؟»

ـ «بلى.. هربت بحثًا عن روحى الضائعة. وكرامتى المهانة..»

ـ «وهل وجدتهما..؟»

ـ «لن أجدهما إلا فى البلد.. يكفى أننى لا أتحدث لا بخير ولا بشر عن أهلى أمام أهل خطيبتى.. كرامتى الغائبة يا أمير تكمن فى أننى لا أحمل فى غربتى تاريخًا أفخر به»

ـ «ومن قال إن تاريخك الذى تعرفه هو التاريخ الذى يجب أن يعرفه الناس.. ما دمت غريبًا فاصنع لنفسك تاريخًا بعينه وقدمه للناس»

قال طاهر فى إشفاق وهو يتذكر أن أميرًا فى عز فقره كان يتمسح فى أبناء الأثرياء

ـ «يبدو لى أنك تقدم لى نصيحة أنت تقوم بها، ويبدو لى أيضًا أنك كرهت البلد»

تلجلج أمير لحظيًّا، ثم عثر على ما يرد به:

ـ «لقد استجبت لمستجدات هى التى أجبرتنى على ذلك ولن أعمل على تغييرها..»

فضحك طاهر قائلًا: «منحتنى الآن لقب باشا، ابن باشا، فماذا منحت نفسك؟..»

ـ «أسرفت فى هذا المنح.. فجاءتنى الثمار مضاعفة.. الناس تخدعها المظاهر»

ـ «السيد يقول إنك نلت مكانة عالية فى الجامعة»

ـ «لأنى لم أنكفئ على نفسى وأسلم بالأمر الواقع»

ولم تغب عن فطنة طاهر زين الدين حالة الإسقاط التى يقصدها أمير النحال بكلماته الأخيرة.. لاذ بصمت قلق، ثم رفع وجهه نحو صديقه القديم:

«لم يكن أمامى سوى أن أفرّ من وجه أبى رغم حزنى على كرامته التى سيقول الناس إنها أهدرت على يد ولده طاهر، ولن يلتمس لى أحد عذرًا وأنا أُنقذ أهم ما فى حياتى: مستقبلى وكرامتى..»

ثم واصل طاهر حديثه المتألم:

«فأبى لم يلق بالًا لمغادرتى مقاعد الدراسة رغمًا عنى، ولم يلتفت إلى آدميتى وهو يلطمنى على وجهى أمام الزبائن لسبب تافه، ونسى فى لحظة واحدة أنه هدمنى مرتين.. ولما ألمت بى فكرة الهروب، ولما ارتحت لذلك اكتشفت أن هذه الفكرة نفسها كانت طاقة النور وبصيص الأمل اللذين جعلانى أقوى على تحمل إهدار كرامتى لوقت طال بى حتى اقترب من العام..»

ويسرح ببصره قليلًا قبل أن يواصل:

كنت أهرب إليكم عصر يوم الاثنين من كل أسبوع فى المصلى المظلل بشجرة ذقن الباشا عند ترعة وجه البلد، لأبثكم أحزانى حينًا، ولوعتى أحيانًا، ولم يلحظ أحدكم أننى كنت أغيب عنكم بضعة أسابيع متوالية..

لو كنتم سألتم عنى فهيهات أن تعثروا على، فأنا فى هذه الأيام جندت نفسى للعثور على هذا الحلاق الشهير الذى اسمه مصطفى عباس فى ميدان روكسى لأراه رأى العين، وأتأكد بنفسى أن هذه الإعلانات الكثيفة التى لا تخلو منها صحيفة أو مجلة هى فعلًا لحلاق.. حلاق مثل أبى.. حلاق يخاطب زبائنه بالصور المثالية لرأس حليق.. وتذكرت كل الصور التى جمعتها ولصقتها فى الورق السميك لكراسات الرسم إلى أن تأكدت بنفسى أن الحلاقة مهنة محترمة.. وعندما شاهدت وأنا أقف على مقربة من مدخل سينما روكسى هؤلاء الوجهاء وأولاد الذوات ولاعبى الكرة وهم يعبرون مدخل السينما الفسيح إلى دكان الحلاقة فى الداخل كنت أنتظرهم وهم يخرجون لأرى شكلهم بعد «الشغل» ومقارنته بشكلهم قبله.. ثم أسرع بالعودة إلى البلد يراودنى حلم الالتحاق بهذا

الصالون. كنت أنظر إلى أصابعى وأتأملها كمن يهمس لها ألا تخذله إذا دخلت هذا المكان وقابلت صاحبه ليضمنى إلى عماله فمن المؤكد أنه سيعقد لى اختبارًا..

وفى اليوم المشهود يوم هروبى تقدمت إلى مصطفى عباس وأنا فى أبهى ملابسى المتاحة.. فحدثته بأدب.. وتحدث معى بأدب .. ولم يكن مجازفًا عندما أسلم لى رأس زبون شاب له شعر همجى نظيف، وكنت جريئًا وواثقًا وأنا أسلم لهما ـ هو والزبون ـ قصة مدهشة لأتمتع منذ الساعات الأولى بثقته ورعايته وحبه.. وصار الصالون من فرط حب المعلم مصطفى لى فى ذمتى عند غيابه.. أحبنى أكثر من أىّ صنايعى قديم.. ولم أجعل من ذلك الحب سببًا لاندلاع الغيرة فى قلوبهم ضدى بل جعلته ميزة لى ولهم وساعدنى على ذلك أنهم أحبونى مثله.. وصرنا الأصدقاء الجدد الذين انصرفوا لبعضهم نتكامل ونتواصل ونعقد الفسح الأسبوعية ونملؤها باللهو والضحك.. وعندما أقع فى بئر الصمت فجأة أكون قد تذكرتكم فى البلد وتخيلت أمى وشقيقاتى البنات يبكينني، ثم تخيلت الجحيم الذى تركته خلفى لأبى الظالم الذى لن يعترف ـ حتى داخل نفسه ـ أنه السبب.

وإزاء كدرى المفاجئ انسحب من جلسة اللهو إلى بعيد.. لأتفحص ما أنا فيه.. قائلًا لنفسى.. كنت زمانك يا طاهر طالب فى الكلية على وشك الإمساك بشهادته العالية، فأى لذة فى الحياة تسعى إليها.. أى هدف عندك يا طاهر يمكنك أن تقول للناس أنك تسعى إليه؟ كان هروبك هو الهدف، وحققته.. فماذا بعد الهروب؟..

من الواضح أنك يا أمير تنظر إلى ماضى أسرتك بعين النقمة والازدراء، فقررت أن تصنع لنفسك ماضيًا بعينه تزينه بكل الفخر الكاذب والجمال المصنوع.. أما أنا، فما استطعت أن أفعله هو أن أنسى هذا الماضى كأنه لم يكن حتى أن مصطفى عباس ما زال حائرًا فى أمرى فهو لم يصدق المعلومة الوحيدة التى لم يعرف عنى غيرها وهو أننى من بلد فلاحين، وأن أبى كان يرعى دكانًا متواضعًا للحلاقة وأنا معه..

لم يعد يزعجنى أن أتمادى فى نسيان الماضى.. لأنه صار من المزعج لى أن أتذكره.. البلد إذا طافت ذكراها حولى فلا يعبئ أنفى منها سوى رائحة مجرور الجامع إذا تسربت رواسبه على كوم السباخ الذى يطل عليه شباك الدكان.. ورائحة ماء الفسيخ الذى يلقيه إبراهيم

الفسخانى فوق هذا الكوم البائس.. لتجتمع روائح البراز والفسيخ والسباخ العفن فى كيمياء قاتله هى الباقية فى أنفى حتى الآن.

وكم أسخط على هذه الذكرى إذا سبحت فى عالم الرضا والنشوة وأنا أقترب من هوانم روكسى فى المحلات الراقية والمطاعم الفخمة وتقترب من أنفى رائحة البارفان الراقى يطير بى إلى عالم من الدهشة والذوبان فى عشق الجمال وأهمس لنفسى لو كان هروبى من البلد سببه فقط الابتعاد عن كوم السباخ والمجرور وأشم عوضًا عنهما عطر الحسناوات فأنا الكاسب، ولفرط غربتى داخل نفسى صرت أهرب بى وبنفسى إلى كل ما يبعدنى عن النوم.. صرت أكره النوم لأنه يأخذ من وقتى الفائض بعد وقت العمل ساعات أنا أولى بها أجوس فيها عالم القاهرة الليلى البديع.. السينمات.. والمسارح.. والمطاعم الفاخرة.. ومحلات الملابس الراقية واكتشفت أن هناك سرًّا فى داخلى وعقلى الباطن يأمرنى أن أنهب هذه السعادة نهبًا فقد تضيع منى فى أية لحظة.. ثم اكتشفت أننى ما زلت أخشى الزمن وأخاف من الأيام مما جعل سعادتى دومًا منقوصة.. وبذلك أصبحت أنا السعيد فى الظاهر.. والبائس المحروم فى الباطن..»

تنهد أمير وهو لا يصدق أن طاهرًا بكل ما فيه من وسامة وأناقة يحمل فى قلبه كل هذا الهم:

ـ «إذن، فأنا وأنت يا طاهر اللذان يقولون عنا إن الهدوم توارى خلفها بلاوى كثيرة..»

فقال طاهر:

ـ «هذا على الأقل بالنسبة لى، فأنت ستحصل على شهادتك وتترقى عامًا بعد عام، أما أنا فليس من المنتظر أن أترقى لأنى أعمل بأرقى صالون حلاقة فى مصر.. ولو تركته لسبب ما إلى صالون آخر فلسوف انخفض درجات.. عذاب شديد ألا يكون لديك هدف أكبر..»

لمعت عينا أمير وهتف: «هذا هو عذابك الحقيقى فعلًا، فأنا أحيا أمل الارتقاء والصعود.»

وأيده طاهر قائلًا: «الفرق بينى وبينك هو أنى قطعت طريقى مرة واحدة.. لكنك تسير فى طريق يحدوه الأمل كلما واصلت المسير..»